مفهوم جماعة المؤمنين (الكنيسة)

من بين الإشكالات المرتبطة بلفظ "الكنيسة" في اللّغة العربية، شأن بعض اللّغات الأخرى، هو استخدام الكلمة تارة للإشارة إلى المبنى الذي يتعبّد فيه المسيحيّون، وتارة أخرى إلى مجموعةٍ أو طائفةٍ مسيحيّةٍ معيّنة مثل كنيسة الأقباط الأرثوذكس، أو كنيسة الإغريق الأرثودكس، أو الكنيسة المارونية أو كثير من الكنائس البروتستانتيّة.

ونجد في اللّغة اليونانيّة الّتي هي اللّغة الأصليّة للإنجيل الشّريف أنّ كلمة إكليسيا (ekklesia) والّتي تقابلها كلمة "كنيسة" بالعربيّة، كانت تُستَخدم للدّلالة على أيّة مجموعة من المؤمنين تجتمع لتعبد الله باسم السيد المسيح (سلامُهُ علينا). ثم أصبحت فيما بعد تدلّ على كلّ من ينتمي إلى أمّة الله أي كلّ النّاس من مختلف الأعراق واللّغات والثقافات الّذين يؤمنون أنّ الربّ الواحد الخالق تجلّى بكلّ جلال في شخص السيّد المسيح.

لقد استخدَمت شعوبُ شرق المتوسّط كلمة إكليسيا قبل زمن السيّد المسيح للدّلالة على كل لقاء شعبيّ أو تجمّع ينعقد بدعوة من السّلطات. واستخدم اليهود الذين يتكلمون باليونانيّة هذه الكلمة للإشارة إلى بني إسرائيل (بني يعقوب)، أي قوم ميثاق الله كما ورد في التوراة وغيرها من كتب الأنبياء. ولفهم مدلول لفظ "إكليسيا" أو جماعة المؤمنين كما وردت في الإنجيل الشّريف، ينبغي علينا أن نبدأ بفكرة "شعب الله" الواردة في التّوراة والزّبور وغيرهما من كتب الأنبياء. وبعد ذلك نرى كيف أعطى سيدنا عيسى (سلامُهُ علينا) للفكرة بعدا جديدا طوّره الحواريّون لاحقا.

يبدأ الكتاب الأوّل في التّوراة، الّذي هو سِفر التّكوين بوصف عملية الخلق التي يمثّل آدم وحواء اكتمالها، إذ حظيا بمنزلة شرف عالية، وبعلاقة قربٍ حميمة مع الله في جنّة عدن. إلاّ أنّ هذه العروة انفصمت عندما عصيا أمر الله وأكلا من الشجرة، ففقدا بذلك منزلتهما المتميّزة، وأُهبطا من الجنّة إلى الأرض. فكان لانفصالهما عن الله والذل الذي لحقهما من جرّاء فعلتهما الشنيعة أثرٌ على ذرّيّتهما الّتي حُكِم عليها بالنّفي. ثمّ عندما فسُد أمر ذريّة آدم سلّط الله عليهم الطوفانَ عقابا لهم وأنجى نوحا ﵇ وأهله. وتُعتبر قصّة النبيّ إبراهيم ﵇ الّتي وردت بعد ذلك ذات أهميّة لأنّها تمثّل مرحلة جديدة في علاقة الله مع بني

البشر، وفيها نستشفّ أربعة جوانب هامّة في الميثاق الذي أبرمه الله مع النبيّ إبراهيم حين طلب منه الانتقال من أور في العراق إلى فلسطين، كما جاء في سِفر التّكوين (12: 1-3، 15: 18-21، 17: 1-8) وهذه الجوانب هي:

1) وعد الله بخصوص الأمّة: "سأجعلكم أمّة عظيمة"
2) وعد الله بخصوص الأرض: "سأورثكم الأرض إلى الأبد"
3) وعد الله بخصوص العلاقة مع قوم ميثاقه: "سأكون ربَّكم وتكونون قومي"
4) وعد الله بخصوص بركته ونعمته على جميع شعوب العالم: "سأبارك جميع شعوب الأرض وأنعم عليهم من خلالك".

ونظرا إلى هذه العلاقة الوثيقة فقد وعد الله النّبيَّ إبراهيم ﷺ وذريّتَه أن يصبحوا قوم ميثاقه. وبما أنّ النّبيّ يعقوب، حفيد النبيّ إبراهيم، قد أعاد اللهُ تسميَتَه، فقد أصبح فرع من ذريّة النبيّ إبراهيم تُعرَف فيما بعد باسم عشيرته الذي هو "بنو يعقوب" أو "بنو إسرائيل".

وبعد قرون من الزمن، في فترة الخروج من مصر، أخبر النبيُّ موسى ﷺ قومَه أنّ الله يريد أن يأخذ عليهم الميثاق مفضّلا إيّاهم على غيرهم من الأمم، فقد جاء في التوراة في سفر التثنية: ﴿لأنكم قومٌ مقدّس لله ربّكم. فإيّاكم قد اختار الله ربّكم من بين جميع شعوب الأرض لتكونوا القوم الخاصّ لميثاقه. ولم يفضّلكم الله ويتخيّركم لأنكم أكثر عددا من سائر الشعوب، فأنتم اقلّ الأمم عددا، بل من محبّته وحفاظا على القسم الذي أقسم به لآبائكم الأوّلين﴾.[1] وتُعتبر هذه الآيات من أوضح الإشارات الّتي وردت في التوراة، والتي تبرز كيف أصبح بنو يعقوب ينظرون إلى أنفسهم على أنّهم "شعب الله المختار". إلاّ أنّ هذه الفكرة تُفهَم في أحيان كثيرة فهما خاطئا. فقد تبادر أحيانا إلى ذهن اليهود أنّ الله يحبّهم أكثر من غيرهم من الشّعوب. كما نسُوا أنّ الله أُختار هذه العلاقة الوثيقة ببني يعقوب ليُسبغ حُبَّه وبركتَه على النّاس أجمعين. إنّ غاية الله من هذه العلاقة الوثيقة مع بني يعقوب هي تمكين البشر من استعادة علاقتهم التي انفرطت عراها مع الله بعصيان آدم وحواء.

ويمكن تلخيص هذه الأفكار التي وردت في التوراة بالقول، إنّ حرص الله على هذه العلاقة مع بني يعقوب ليس لأنهم أفضل من غيرهم من الشعوب، بل لأنّ الله أراد أن تعمّ بركاته على جميع شعوب الأرض من خلالهم، كما أنّه اختارهم من منظور محبّته الشاملة للإنسانية جمعاء.

[1] التوراة، سفر التثنية 7: 6-8.

وعندما أرسل الله سيّدنا عيسى (سلامُهُ علينا) ليكون حَلقة وصل تُتيح لبني آدم استعادة منزلة الشّرف والقرب الّتي كانوا يحظون بها عنده تعالى، فسمح بتطوير الأفكار السّالفة الذّكر بخصوص شعب الله، وتجلّى ذلك في بروز ثلاث أفكار جديدة على الأقلّ:

الفكرة الأولى:

أعلن السيد المسيح تمثيله شعب بني يعقوب برمّته بطريقة فريدة وخاصة، وذلك بالإشارة إلى نفسه عبر ألقاب وردت في التوراة والزّبور وغيرهما من كتب الأنبياء، وهي ألقاب تُطلق على بني يعقوب ككلّ. ومن ذلك مثلا أنّ المسيح وصف نفسه بـ"الابن الروحي لله" وهو لقب كان يطلق على شعب بني يعقوب وملوكهم في الزبور وغيره من كتب الأنبياء. كما كان السيد المسيح يلقّب نفسه بـ"عبد الله" وهي صفة كان النبيّ أشعيا ﷺ يطلقها على شعب بني يعقوب ككلّ. كما وصف نفسه بالكرمة الحقيقيّة، ونعلم أنّ الله وصف بني يعقوب في الزّبور بـ"الكرمة". فالسيّد المسيح يريد من خلال هذه الأسماء أن يقول إنه هو الذي يمثّل بني يعقوب، قوم ميثاق الله.

الفكرة الثانية:

دعا سيّدنا عيسى (سلامُهُ علينا) النّاس ليكونوا من أتباعِه، وتحدّث عن تأسيس جماعة خاصّة به. وعندما اختار اثني عشر رجلا ليكونوا حواريّيه كان في ذلك إشارة واضحة لأسباط بني يعقوب الاثني عشر. وحين عبّر بطرس الصّخر وهو أحدُ الحواريّين عن إيمانه بأن سيّدَنا عيسى هو المسيح المنتظر أجابه قائلا: ﴿وإنّي أُطلِقُ عليكَ لَقَبَ الصَّخَرِ. وعلى أساسِ تِلكَ الصَّخرةِ سأُقيمُ أُمّتي، فيَكونُ إيمانُها راسخًا وأبوابُ المَوتِ لن تَصمُدَ أمامَها﴾ (متّى 16: 18). ومن بين تعاليم السيّد المسيح أنّه شرح لأتباعه طريقة بناء علاقتهم فيما بينهم على أساس متين، كما قدّم لهم معالم الحياة البارزة في كنف جماعتهم الجديدة. لذا، يجب النظر إلى جماعة المؤمنين باعتبارها امتدادا للأمّة السّالفة، أي لبني يعقوب، وقد دخلت هذه الأمّةُ عهدا جديدا من خلال السيّد المسيح. وأصبح من واجبها إظهارُ انقيادها وطاعتها للسيّد المسيح كرئيسٍ لها، كما أصبح حواريّوه في مرتبة الآباء لهذه الجماعة الجديدة.

الفكرة الثالثة:

لقد كان السيّد المسيح يتشوّق إلى الوقت الذي يصبح فيه قوم ميثاق الله مكوَّنا لا فقط من اليهود، بل من كلِّ الشّعوب والأمم أيضا. وبانبعاث السيد المسيح من الموت، قد أبدى الله رضاه على كلِّ ما قاله (سلامُهُ علينا) عن نفسه، ونصره أمام الأمم قاطبة. ثمّ بُعَيْد قيامته من الموت تحدّث عن السّلطة الفريدة التي منحه الله إيّاها، والّتي أمر حواريّيه على أساسها بنشر رسالته في الآفاق ودعوةِ النّاس للدّخول في

المملكة الربّانية: ﴿لقد مَنَحَني اللهُ كُلَّ سُلطانٍ في السَّماءِ والأرضِ، فانطَلِقوا إذن وطُوفوا في الأرضِ على جَميعِ الشُّعوبِ وحَدِّثُوهُم عن رِسالتي حتّى يُؤمنُوا بِها ويَصيروا مِن أتباعي، وكدَليلٍ على إيمانِهِم، طَهِّرُوهُم بالماءِ باسمِ اللهِ الأبِ الصَّمَدِ والابنِ الرُّوحيِّ لهُ ورُوحِهِ تَقدَّسَ وتَعالى، وعَلِّمُوهُم أن يَعمَلوا بكُلِّ ما أَوصَيتُكُم بِهِ، وتَيَقَّنوا بأنّي سأكونُ مَعَكُم على الدَّوامِ إلى آخِرِ الزّمانِ﴾ (متّى 28: 18-20)

يصف كتاب سيرة الحواريين (أو أعمال الرّسل) ارتفاعَ عدَدِ جماعة المؤمنين في الأسابيع والسّنوات الّتي تلت صعود السيّد المسيح إلى السّماء، فعندما خاطب الحواريّ بطرس جموع المُصَلِّين في القدس يوم عيد الخمسين آمن ثلاثة آلافٍ منَ النّاس وتطهّروا بالتّغطيس في الماء على يد الحِواريّين (انظر سيرة الحواريين 2: 1-47). وقد كانت شعيرة الطّهارة بالتّغطيس معروفة لدى اليهود كعلامة على استقبال شخصٍ جديد في عقيدتهم، وهي الوظيفة التي احتفظ بها التطهير بالتّغطيس حتّى بين المؤمنين بالسيّد المسيح.

وقد طوَّرَ الحِواريُّون بواسطة كتاباتِهم فكرةَ جماعة المؤمنين من عدّة جوانب، كما أشاروا إلى أهميّة كل جماعات المؤمنين أينما كانوا. هكذا، تحدّث الحواريُّ بولس مثلا في رسالته الأولى إلى المؤمنين في كورنتوس عن تلك الجماعة من المؤمنين الّذين كانوا يلتقون في منزل عَقيل وبَرَكة (انظر كورنتوس الأولى 16: 19). كما كان على علم بوجود عدّة جماعات من المؤمنين في مناطق أخرى لأنّه تحدّث عن الجماعات الموجودة في مقاطعة آسيا.

ولقد تحدّث الحواريّ بولس عن أتباع السيّد المسيح لا باعتبارهم مؤمنين فقط بل باعتبارهم "أولياء صالحين" أيضا. ورغم أنّ النبيّ موسى ﷺ أشار إلى بني يعقوب كشعب يتمتّع بمنزلة خاصّة عند الله، إلاّ أنّ الحواريّ بولس قد تحدّث عن كلّ المؤمنين بالسيد المسيح كعباد صالحين وذوي منزلة خاصّة عند الله، بغضّ النّظر عن صلتهم بذريّة يعقوب. وقد استهلّ رسالتَه إلى المؤمنين في مدينة فيليبي بهذه الكلمات: ﴿إلى جَميعِ عِبادِ اللهِ الصّالِحينَ في مَدينةِ فيليبّي، أي أتباع سَيِّدِنا عيسى المَسيحِ﴾ (1: 1). ويستخدم بولس وصفا رائعا لجماعة المؤمنين حين يشبّههم بأمّة الجسد الواحد للسيد المسيح: ﴿إنّ الرَّجُلَ أصلُ المَرأةِ، كَما أنّ السَّيِّدَ المَسيحَ أصلُ جَماعةِ المؤمنينَ، ومُنقِذُهُم باعتِبارِهِم أُمّةَ الجَسَدِ الواحِدِ لهُ على الأرضِ﴾ (أفاسوس 5: 23). والفكرة الأساسيّة هنا هي أنّ كلّ المؤمنين بالمسيح (سلامُهُ علينا) ليسوا فقط مرتبطين ببعضهم بعض ومتوحّدين بل بالسيد المسيح أيضا لأنّه بمثابة الرّأس للجسد.

وعندما كتب الحواريُّ بطرس الصخر رسالته إلى أتباع السيّد المسيح المقيمين فيما يُعرف اليوم بتركيا، وقد كان من بينهم يهودٌ وغيرُ يهودٍ فاستخدم صورا وألقابا كانت حكرا على بني يعقوب في التّوراة والزّبور وغيرهما من كتب الأنبياء، ووصف بتلك الألقاب أتباع السيّد المسيح على اختلاف أعراقهم:

﴿أمّا أنتُم فإنّكُم جَماعةٌ اختارَها اللهُ، أحبارٌ للمَلِكِ العَظيمِ، أُمَّةٌ مِنَ المَنذورينَ، خَصَّهُم لذاتِهِ حتّى تَرفَعوا ذِكرَهُ بَينَ النّاسِ، لأنّهُ أخرَجَكُم مِن ظُلُماتِ الشَّرِّ إلى نورِهِ الباهِرِ. ولم تَكونوا مِن أُمّةِ اللهِ سابِقًا، أمّا اليَومَ فقد صِرتُم مِن أُمّتِهِ تَعالى. وكُنتُم لا تَتَمَتّعُونَ بِرَحمتِهِ تَعالى، أمّا الآن فأنتُم تَتَمَتّعونَ بها﴾ (رسالة بطرس الأولى 2: 9-10).

وهكذا، أصبحت عبارة "جماعة المؤمنين" الواردة في تعاليم الحواريّين تعني كلَّ أفراد قوم ميثاق الله المؤمنين بالسيّد المسيح منقذا، وذلك على مرِّ المراحل التّاريخية المختلفة بما في ذلك الماضي والحاضر والمستقبل. فهي تضمّ جميع البشر من مختلف الأعراق والثقافات، نساء ورجالا، شيبا وشبابا. وباختصار جميع من استجابوا للأخبار السارّة المتعلّقة بمحبّة الله كما تجلّت من خلال السيّد المسيح.